أصغر القادة

في الإسلام

٦ قصص للأطفال

عبد الباسط البطل

الكتاب: أصغر القادة في الإسلام

الكاتب: عبد الباسط البطل

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

البطل ، عبد الباسط

أصغر القادة في الإسلام / عبد الباسط البطل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٥٥ ص، ١٨*٢١ سم.

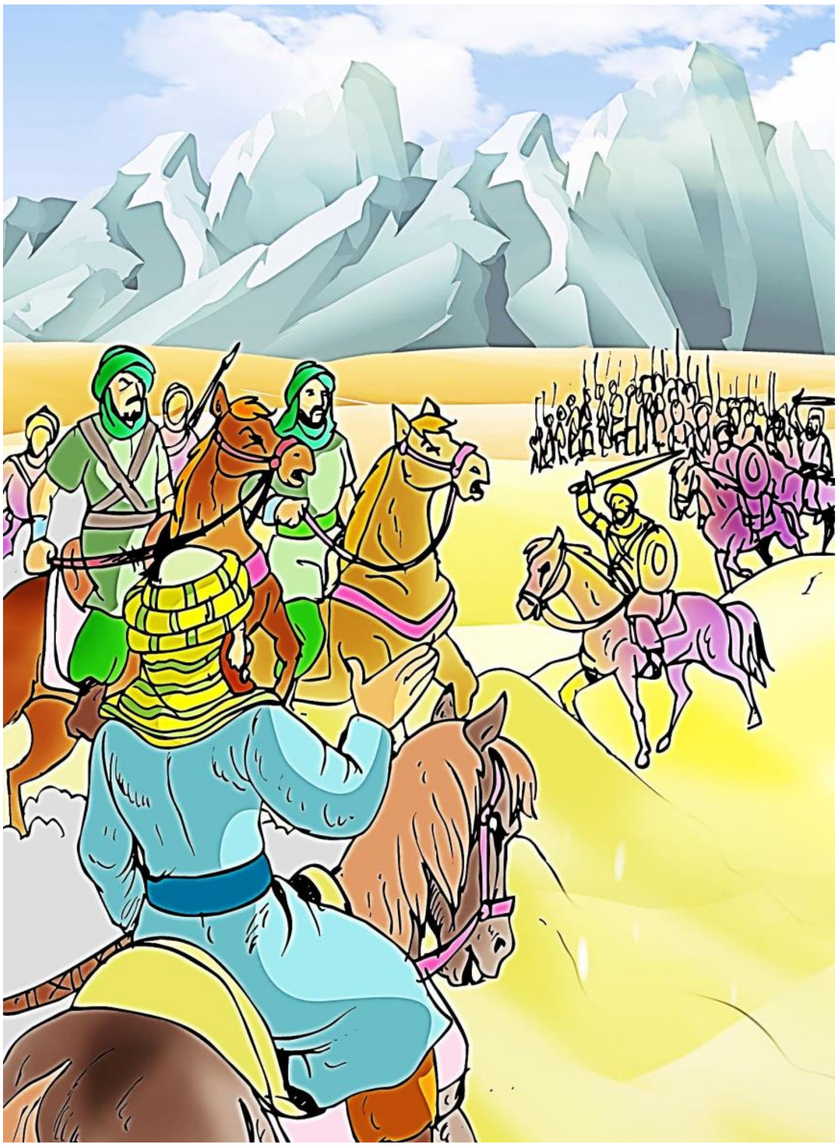
الترقيم الدولى: ٦ – ٠٩ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٧٠٢ / ٢٠٢٠

أصغر القادة في الإسلام

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

أُسَامَةُ بْنِ زَيْدٍ



(١)

عَاشَ زَيْدٌ بْنِ حَارِثَةَ فِي كَنَفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ تَزَوَّجَ مِنَ السَّيِّدَةِ أُمِّ أَيْمَنَ الحَبَشِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ مَمْلُوكَةً للسَّيِّدَة آمِنَةَ أُمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَامَتْ بِحَضَانَةِ النَّبِي بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدَتِهِ.

أَنْجَبَتْ أُمُّ أَيْمَنَ غُلَامًا (اسْمُهُ أُسَامَةُ)، أَحَبَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِثْلَمَا أَحَبَّ وَالِدَهُ زَيدًا، حَتَّىَ أَنَّهُ كَانَ يُقْعِدَهُ عَلَىَ إحْدَىَ فَخْذَيْهِ، ويُجْلِسُ حَفِيدَهَ الحَسَنَ بْنِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةِ عَلَىَ فَخْذِهِ الأُخْرَىَ، ويُدَاعِبْهُمَا مَعًا، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا إِلَىَ صَدْرِهِ، ويَقُولَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فأَحِبَّهُمَا" ؛ ولِذَلِكَ أطْلَقَتِ الصَّحَابَةُ عَلَىَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ "الحِبُّ بْنِ الحِبّ". وبرَغْمِ أنَّ أسَامَةَ كَانَ شَدِيدَ السَّوَادِ، إلَّا أَنَّهُ كَانَ خَفِيفَ الظِّلِّ، شُجَاعًا، حَادَّ الذَكَّاءِ, مُتَوَاضِعًا، يَبْذُلُ أقْصَىَ مَا عِنْدَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وبَلَغَتْ شِدَّةُ حُبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُسَامَةَ، أَنَّهُ حِينَمَا تَعَثَّرَتْ قَدَمُهُ بعَتَبَةِ البَابِ وهُوَ طِفْلٌ، وَقَعَ عَلَىَ الأَرْضِ،

فَشُجَّتْ جَبْهَتُه، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَيْهِ، وجَعَلَ يُزِيلُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِه ويُطَيِّبُ خاطِرَهُ بِكَلِماتٍ تَفِيضُ عُذُوبَةً وحَنَانًا.

ولَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ أهْدَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حُلَّةً ثَمِينَةً كَانَتْ لِمَلِكٍ سَابِقٍ، اشْتَرَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ "حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ"، ولَبِسَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أهْدَاهَا إلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حُبًّا فِيهِ، فَكَانَ أُسَامَةُ يَرُوحُ بِهَا ويَغْدُو بَيْنَ أتْرَابِهِ مِنْ شُبَّانِ الأنْصَارِ والمُهَاجِرِينَ.

(٢)

حِينَمَا بَلَغَ أُسَامَةُ مَبْلَغَ الصِّبْيَانِ، تَقَدَّمَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُرِيدُ الانْضِمَامَ إلَى صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أشْفَقَ عَلَيْهِ ورَدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ، فَبَكَى مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ، ولِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الجِهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ.

ومِنْ دُرُوسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُسَامَةَ: أرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إلَى الحُرَقَةِ، كَانَ أُسَامَةُ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ، برُغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ، وأثْنَاءَ القِتَالِ، تَعَقَّبَ أُسَامَةُ وأحَدُ الأنْصَارِ رَجُلًا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا أدْرَكَاهُ، قَالَ الرَّجُلُ: "أشْهَدُ أنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"؛ فكَفَّ الأنْصَارِيُّ عَنْ مُلَاحَقَتِهِ، لَكِنَّ أُسَامَةَ طَعَنَهُ بِرُمحٍ فَقَتَلَهُ. وعِنْدَمَا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، غَضِبَ مِنِ أُسَامَةَ غَضَبًا شَدِيدًا، وقَالَ لَهُ: يَا أُسَامَةُ أقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلِهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ أُسَامَةُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَلَّ يُكَرِّرُ لَوْمَهُ وتَأْنِيبَهُ، حَتَّىَ تَمَنَّىَ أُسَامَةُ أنْ لَا يَكُونَ قَدْ أسْلَمَ بَعْدُ، لَأنَّ مَا فَعَلَهُ لَيْسَ بأخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ أعْطَىَ أُسَامَةُ عَهْدًا للهِ أمَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَالَ: "إِنِّي أعُطِي اللهَ عَهْدًا، ألَّا أقْتُلَ رَجُلًا يقُولَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ أبَدًا"؛ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَعْدِي يَا أُسَامَةُ؟.. قَالَ: بَعْدُكَ.

(٣)

خَرَجَ أُسَامَةُ مَعَ وَالِدِهِ فِي غَزْوَةِ مُؤتَةِ، ولَمْ يَبْلُغَ وَقْتَهَا الثَّامِنَةَ عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وقَاتَلَ مَعَهُ قِتَالَ الأبْطَالِ، حَتَّىَ رَأىَ مَصْرِعَ وَالِدِهِ أمَامَ عَيْنَيْهِ، وبرُغُمِ ذَلِكَ لَمْ تَكِلَّ قُوَّتِهِ وشَرَاسَتِهِ فِي القِتَالِ، حَتَّىَ انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ، ثُمَّ عَادَ إِلَىَ الْمَدِينَةِ عَلَىَ

فَرَسِ أبِيهِ، مُحْتَسِبًا أبَاهُ شَهِيدًا عِنْدَ اللهِ.

زَادَتْهُ هَذِهِ الوَاقِعَةُ قُوَّةً وصَلَابَةً، حَتَّىَ جَاءَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، اليَوْمُ الَّذِي فَرَّ فِيهِ جَيْشُ المُسْلِمِينَ مِنِ أمَامِ العُدُوِّ، وتَرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسْطَ المَعْرَكَةِ، لَكِنَّ أُسَامَةَ ثَبُتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ومَعَهُ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ولَمْ يَفِرّ كَمَا فَرَّ الكِبَارُ، ودَافَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكُلّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ، حَتَّىَ تَحَوَّلَتِ الهَزِيمَةُ إلَىَ نَصْرٍ للمُسْلِمِينَ بفَضْلِ اللهِ وثَبَاتِهِم.

أُعْجِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بشَجَاعَةِ أُسَامَةَ، ووَلَّاهُ قَائِدًا لجَيْشِ المُسْلِمِينَ لِغَزْوِ الرُّومِ، برَغْمِ أنَّ فِي الجَيْشِ كِبَارُ الصَّحَابَةِ: "أبَو بَكْرُ, وعُمَرُ....". لَكِنْ تَأجَّلَ خُرُوجُ الجَيْشِ لمَرَضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وبَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَوَلَّىَ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الخِلَافَةَ، وأمَرَ بخُرُوجِ الجَيْشِ إلَىَ الرُّومِ، حَسْبَ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّ بَعْضًا مِنَ الصَّحَابَةِ اسْتَكْثَرُوا قِيَادَةَ الجَيْشِ عَلَىَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَهُوَ مَازَالَ صَغِيرًا، وأرْسَلُوا عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ إلَىَ أبِي بَكْرٍ ليُحَدّثَهُ فِي نَقْلِ القِيَادَةِ إلَىَ رَجُلٍ أكبَرَ

سِنًّا مِنْ أُسَامَةَ؛ فغَضِبَ أبُو بَكْرٍ ﷺ وقَالَ : ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا بْنَ الخَطَّابِ، اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وتَأمُرُنِي أنْ أنْزِعَهُ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ ظَنَنْتُ أنَّ السِّبَاعَ تَخْطَفُنِي؛ لأنْفَذْتُ بَعْثَ أُسَامَةَ.

(٤)

خَرَجَ القَائِدُ أسَامَةُ مِنَ المَدِينَةِ بجَيْشِهِ، وخَرَجَ مَعَهُ أبُو بَكْرٍ ﷺ لِيُوَدِّعَهُ سَيْرًا عَلَى الأقْدَامِ، بَيْنَمَا أُسَامَةُ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسِهِ، فَاسْتَحَى أُسَامَةُ مِنْ هَذَا المَوْقِفِ، وقَالَ لأبِي بَكْرٍ ﷺ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، واللهِ لَتَرْكَبَنَّ أوْ لأنْزِلَنَّ. فقَالَ أبُو بَكْرٍ ﷺ : واللهِ لَا نَزَلْتَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أبُو بَكْرٍ ﷺ مِنْ أُسَامَةَ أنْ يَبْقَيَ مَعَهُ عُمَرَ فِي المَدِينَةِ لِيُعِينَهُ عَلَى أمُورِ الحُكْمِ. وبِهَذَا أعَطَى أبُو بَكْرٍ ﷺ أعْظَمَ قُدْوَةٍ فِي اسْتِئْذَانِ القَائِدِ مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا.

وانْطَلَقَ جَيْشُ أُسَامَةَ إلَى البَلْقَاءِ، وانْتَصَرَ فِي حُرُوبِه الَّتِي حَدَّدَهَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ولَقَّنَ الرُّومَ دَرْسًا قَاسِيًا فِي

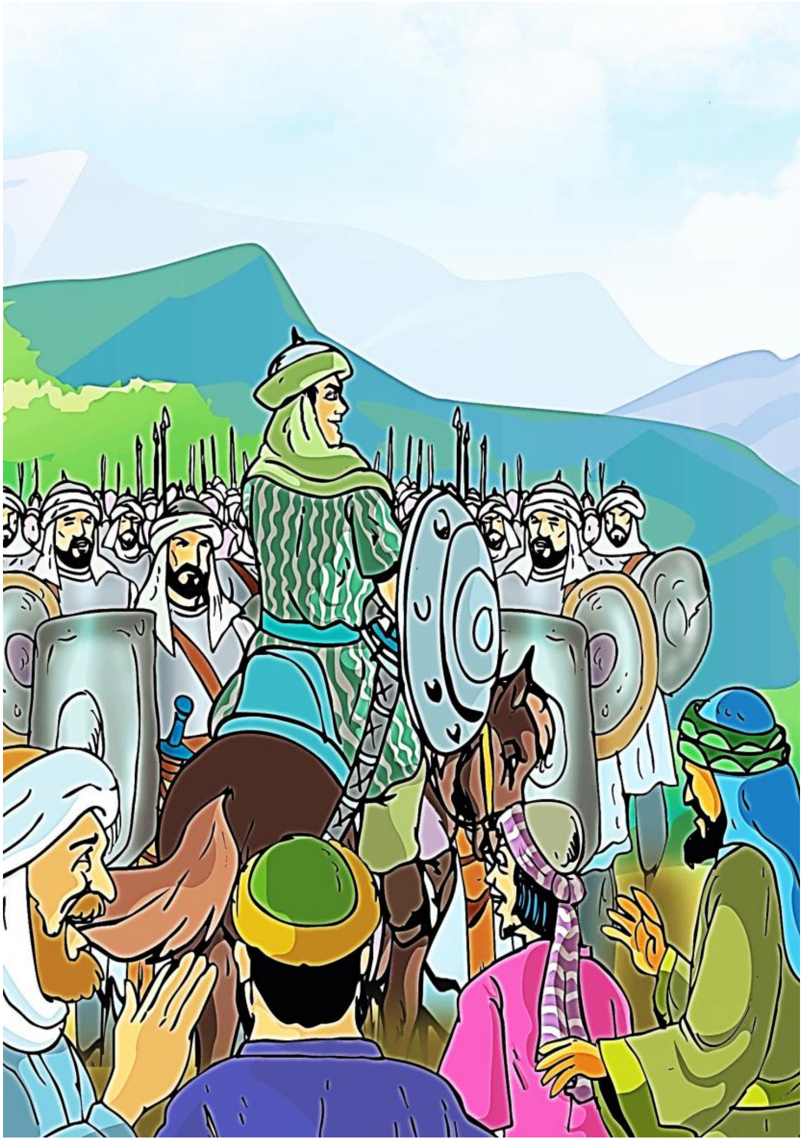
فُنُونِ الحَرْبِ، ثُمَّ عَادَ مُنْتَصِرًا، دُونَ أدْنَى خَسَارةٍ، يَسْحَبُ خَلْفَهُ الأسْرَى، ويَحْمِلُ الكَثِيرَ مِنَ الغَنَائِمِ.

وعِنْدَمَا اشْتَدَّتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ ومُعَاوِيَةَ "رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا" وَقَفَ أُسَامَةُ مُحَايِدًا مَعَ حُبِّهِ الشَّدِيدِ لِعَلِيِّ، وبَعَثَ لَهُ رِسَالَةً قَالَ فِيهَا:

"يَا أبَا الحَسَنِ إنَّكَ واللهِ لَوْ أخَذْتَ بِمَشْفَرِ الأسَدِ (فَمُهُ) لأخَذْتُ بِمَشْفَرِهِ الآخَرِ مَعَكَ حَتَّىَ نَهَلَكَ جَمِيعًا أوْ نَحْيَا جَمِيعًا، فَأمَّا هَذَا الأمْرُ الَّذِي أنْتَ فِيهِ، فَوَ اللهِ لَا أدْخُلَ فِيهِ أبَدًا"..

ولَزِمَ أُسَامَةُ دَارَهُ فَتْرَةَ النِّزَاعِ حَتَّىَ لَا يَقْتُلَ مُسْلِمًا. وكَانَ ﷺ كَثِيرَ العِبَادَةِ، مُحَافِظًا عَلَىَ صَوْمِ يَوْمِ الإثْنَينِ والخَمِيسِ عَلَىَ الرَّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهِ وضَعْفِ جِسْمِهِ؛ تَأسِّيًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّىَ تُوُفِّيّ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أبِي سُفْيَانَ سَنَةَ (٥٤هـ)

الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ



الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، مِنْ أوَائِلِ المُسْلِمِينَ، وأحَدُ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينِ بالجَنَّةِ، وأحَدُ السِّتَّةِ أصْحَابِ الشُّورَى، ومِنَ الَّذِينَ رَضِيَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ. أسْلَمَ الزُّبَيْرُ فِي سِنٍّ صَغِيرةٍ، عَلَى يَدِ أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعِنْدَمَا عَلِمَ عَمُّهُ بأَمْرِ إسْلَامِهِ، غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا، ورَاحَ يُعَذِّبُهُ برَغْمِ صِغَرِ سِنِّه، حَتَّى أنَّهُ كَانَ يَلِفُّ الزُّبَيْرَ فِي حَصِيرٍ، ويُدَخِّنَ عَلَيْهِ بالنَّارِ، يُرِيدُ أنْ يَخْنُقَهُ بالدُّخَانِ، إنْ لَمْ يَرْجِعَ عَنْ إسْلَامِهِ. ولَكِنَّ مَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ، مِنَ الصَّعْبِ أنْ يَعُوَد للْكُفْرِ مَرَةً أُخْرَى، وتَحَمَّلَ صُنُوفَ العَذَابِ مِنْ قَوْمِهِ.

نَالَ الزُّبَيْرُ أجْرَ الهِجْرَتَيْنِ إلَى الحَبَشَةِ، ثُمَّ عَادَ إلَى قُرَيْشٍ مَرَّةً أُخْرَى، وشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَمِيعَ الأحْدَاثِ، ثُمَّ هَاجَرَ إلَى المَدِينَةِ مَعَ زَوْجَتِهِ أسْمَاءَ بِنْتَ أبِي بَكْرٍ، ومَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِأوَّلِ مَوْلُودٍ فِي الإسْلَامِ بالمَدِينَةِ، أسْمَاهُ "عَبْدَ اللهِ".

أوّلُ مَنْ أشْهَرَ سَيْفًا فِي الإسْلَامِ

عِنْدَمَا كَانَ فِي مَكَّةَ، سَمِعَ بمَقْتَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ شَاهِرًا سَيْفَهُ، وسَارَ هَائِجًا غَاضِبًا فِي شَوَارِعِ مَكَّةَ،

يُرِيدُ أنْ يَنْتَقِمَ مِنَ المُشْرِكِينَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الوَقْتِ، حَتَّ الْتقَى بالرَّسُولِ ﷺ، فسَأَلَهُ: مَالَكَ يَا زُبَيْرُ؟

قَالَ الزُّبَيْرُ: سَمِعْتُ أَنَّكَ قَدْ قُتِلْتَ

قَالَ: ومَاذَا كُنْتَ فَاعِلًا يَا زُبَيْرُ؟

قَالَ: أرَدْتُ واللهِ أنْ أَسْتَعْرِضَ أهْلَ مَكَّةَ.

وهُنَا دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

حُبُّهُ للْجِهَادِ

مُنْذُ أنْ بَلَغَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ سَنَةً، بَدَأَ يُزَاحِمُ الكِبَارَ فِي الصُّفُوفِ الأوْلَى، يَتَقَدَّمُ بشَجَاعَةٍ، سَاعِيًا إِلَى الاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَفِي يَوْمِ بَدْرٍ رَبَطَ عُصَابَةً صَفْرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ، ورَاحَ يَجُولُ ويَصُولُ فِي مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ، فَنَزَلَتِ المَلَائِكَةُ عَلَيْهَا عُصَابَةٌ صَفْرَاءُ، مِثْلَ الَّتِي عَلَى الزُّبَيْرِ.

وفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وبَعْدَ أنْ انْقَلَبَ جَيْشُ قُرَيْشٍ رَاجِعًا

إِلَىَ مَكَّةَ، نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزُّبَيْرَ وأَبَا بَكْرٍ لتَعَقُّبِ جَيْشَ المُشْرِكِينَ ومُطَارَدَتِه، فَقَادَ أَبُو بَكْرٍ والزُّبَيْرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – سَبْعِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ قِيادَةً ذَكِيَّةً، أَبْرَزَا فِيهَا قُوَّةَ جَيْشِ المُسْلِمِينَ، حَتَّىَ أَنَّ قُرَيْشًا ظَنَّتْ أَنَّهُم مُقَدِمَةً لجَيْشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ القَادِمِ لمُطَارَدَتِهِم، فأَسْرَعُوا خُطَاهُم لمكَةَ هَارِبِينَ.

ويَوْمُ الخَنْدَقِ, قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ يَأتِينا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ؟) وكَانُوا حُلَفَاءَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ, فقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ولَمْ يَقُمْ غَيْرُهُ, ثُمَّ دَعَا النَّبِي ﷺ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ والثَّالِثَةَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ غَيْرُهُ، وذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ الَّذِي أَصَابَ المُسْلِمِينَ, فَذَهَبَ عَلَىَ فَرَسٍ, فَجَاءَهُم بالخَبَرِ, فقَالَ ﷺ: (لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ, وحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ).

وحِينَ طَالَ حِصَارُ بَنِي قُرَيْظَةِ دُونَ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لرَسُولِ اللهِ ﷺ، أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزُّبَيْرَ وعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وأَلْقَيَا بنَفْسَيْهِمَا دَاخِلَ الحِصْنِ، وبِقُوَّةِ إِيمَانِهِمَا أَنْزَلَا الرُّعْبَ فِي أَفْئِدَةِ المُتَحَصِّنِينَ دَاخِلَهُ، وفَتَحَا للمُسْلِمِينَ أَبْوابَهُ.

أبْصَرَ الزُّبَيْرُ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ مَالِكَ بْنِ عَوْفٍ "زَعِيم هَوَازِنَ" وقَائِدَ جُيُوشِ الأعْدَاءِ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَاقِفًا وَسْطَ فَيْلَقٍ مِنْ أصْحَابِهِ وجَيْشِهِ المُنْهَزِمِ، فَاقْتَحَمَ حَشْدَهُم وَحْدَهُ، وشَتَّتَ شَمْلَهُم وأزَاحَهَم عَنِ المكَانِ الَّذِي كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ فِيهِ ببَعْضِ المُسْلِمِينَ العَائِدِينَ مِنَ المَعْرَكَةِ.

ثُمَّ كَانَتْ مَوْقِعَةُ اليَرْمُوكِ أفْضَلَ الحُرُوبِ الَّتِي خَاضَهَا، اخْتَرَقَ صُفُوفَ الرُّومِ مَرَّتَيْنِ لِيُشَتِّتَ جَمْعَهُم، وخَرَجَ مِنْ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ سَالِمًا، إلَّا بضَرْبَتَيْنِ مِنَ الخَلْفِ، أصَابَتَا قَفَاهُ.

أمَانَتُهُ:

عَمِلَ الزُّبَيْرُ تَاجِرًا، وأصْبَحَ مِنْ أثْرِيَاءِ المُسْلِمِينَ بِفَضْلِ اللهِ وبفَضْلِ أمَانَتِهِ، وإنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وكَانَ النَّاسُ يضَعُونَ عِنْدَهُ أمْوَالَهُم ثِقَةً فِيهِ، فَكَانَ يَعْتَبِرُ هَذِهِ الأمْوَالَ دَيْنًا طَرَفَهُ ولَيْسَتْ أمَانَةً، لأنَّ الأمَانَةَ لَوْ تَلَفَتْ فِهِيَ عَلَى صَاحِبِهَا، أمَّا لَوْ كَانَتْ دَيْنًا فَهُوَ مُلْزَمٌ بِرَدِّهِ إلَى صَاحِبِهِ.

ولَيْسَتْ أمَانَتُهُ فِي التِّجَارَةِ فَقَطْ، بَلْ أيْضًا فِي نَقْلِ

الكَلِمَةِ، فَحِينَ سَأَلَهُ أَحَدُ أبْنَائِهِ وقَالَ لَهُ: "مَا لِيَ لَا أسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا أسْمَعُ ابْنَ مَسْعُودٍ وفُلَانًا وفُلانًا"، فقَالَ الزُّبَيْرُ: "أمَّا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ مُنْذُ أسْلَمْتُ، ولَكِنِّي سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً، وهْيَ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فلْيَتَبَوَّأْ مِقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".

وأخِيرًا نَالَ الشَّهَادَةَ:

بَعْدَ اسْتِشْهَادِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ، بَايَعَ الزُّبَيْرُ وطَلْحَةُ عَلِيًّا بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ خَرَجَا إِلَىَ العُمْرَةِ، ومِنْ هُنَاكَ ذَهَبَا إِلَىَ البَصْرَةِ للْأَخْذِ بثَأْرِ عُثْمَانَ، فَكَانَتْ مَوْقِعَةُ الجَمَلِ سَنَةَ ٣٦ هِجْرِيَّة.

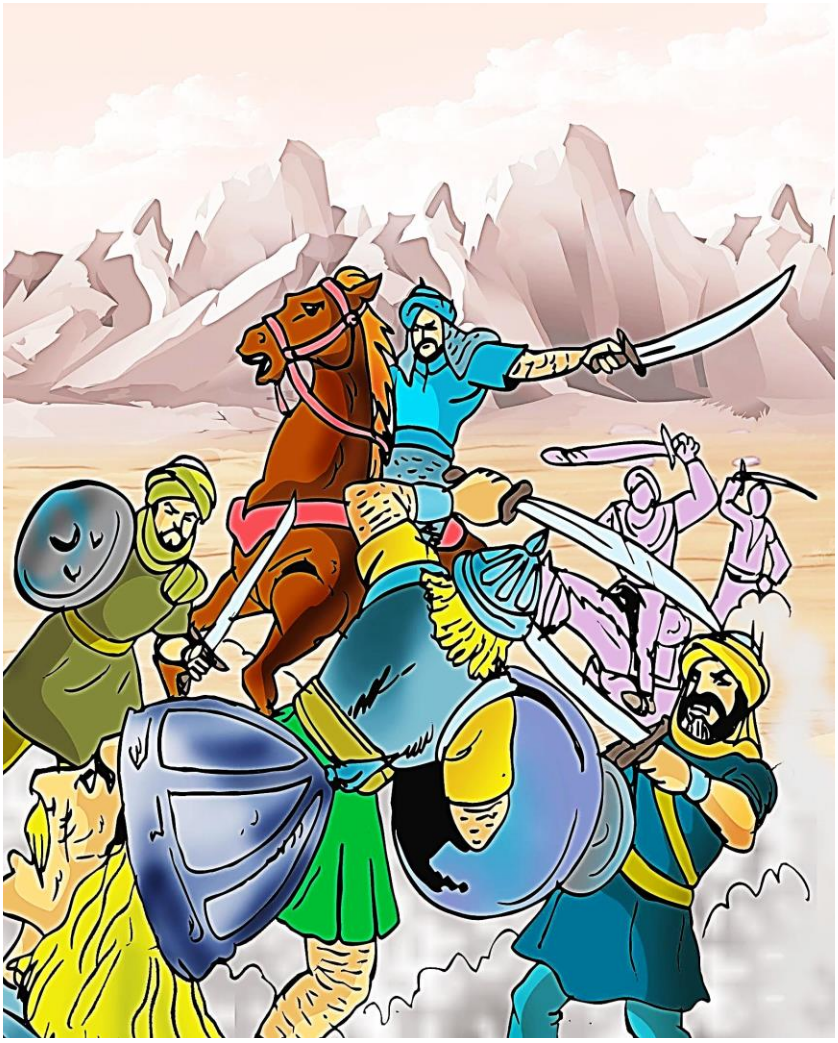
وكَانَ عَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي فَرِيقٍ، والزُّبَيْرُ وطَلْحَةُ فِي فَرِيقٍ، وبَكَىَ عَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَمَا رَأَىَ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ فِي هَوْدَجِهَا بأرْضِ المَعْرَكَةِ، فَصَاحَ بطَلْحَةَ قَائِلًا: "يَا طَلْحَةُ، أجِئْتَ بِعَرُوسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُقَاتِلُ بِهَا، وخَبَّأْتَ عَرُوسِكَ فِي البَيْتِ؟" ثُمَّ قَالَ للزُّبَيْرِ: "يَا زُبَيْرُ نَاشَدْتُكَ اللهَ، أتَذْكُرُ يَوْمَ مَرَّ بِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ونَحْنُ بمَكَانِ كَذَا، فقَالَ لَكَ:(يَا زُبَيْرُ

ألَا تُحِبُّ عَلِيًّا؟) فقُلْتَ: "(ألَا أُحِبُّ ابْنَ خَالِيَ، وابْنَ عَمِّيَ، ومَنْ هُوَ عَلَى دِينِي؟ فقَالَ لَكَ يَا زُبَيْرَ، أمَا واللهِ لَتُقَاتِلَنَّهُ وأنْتَ ظَالِمٌ)، فقَالَ الزُّبَيْرُ: "نَعَمْ تَذَكَّرْتُ الآنَ وكُنْتُ قَدْ نَسِيتُ، واللهِ لَا أُقَاتِلَكَ".

وانْسَحَبَ الزُّبَيْرُ وطَلْحَةُ مِنَ الحَرْبِ، وتَبِعَهُمَا رَجُلَانِ: "عَمْرُو بْنُ جَرْمُوزٍ" و"مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ"، وقَتَلَ عَمْرُو الزُّبَيْرَ بالسَّيْفِ وهُوَ يُصَلِّي، ورَمَى مَرْوَانُ طَلْحَةَ بالسَّهْمِ.

بَكَى سَيِّدُنَا عَلِيٌّ بُكَاءً شَدِيدًا عِنْدَمَا عَلِمَ بأمْرِ مَقْتَلِهِمَا، وقَامَ بدَفْنِهِمَا وهُوَ يقُولَ: "إنِّي أرْجُو أنْ أكُونَ أنَا وطَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وعُثْمَانُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِم: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ"، ثُمَّ نَظَرَ إلَىَ قَبْرَيْهِمَا وقَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "طَلْحَةُ والزُّبَيرِ جَارَايَ فِي الجَنَّةِ".

القَعْقَاعُ "رَجُلٌ بألْفِ رَجُلٍ"



اشْتَهَرَ القَعْقَاعُ بْنُ عَمْرو بفُرُوسِيَّتِهِ وشَجَاعَتِهِ فِي مَيَادِينِ الجِهَادِ، وشَخْصِيَّتِه القِيَادِيَّةِ القَوِيَّةِ، وعَقِيدَتِهِ الصَّادِقَةِ، حَتَّى أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ: مَا أعْدَدَتّ للجِهَادِ؟ فقَالَ: "طَاعَةَ اللهِ ورَسُولِهِ والخَيْلِ", فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "تِلْكَ الغَايَةُ".

عَاصَرَ القَعْقَاعُ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ للمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ خِلَافَةِ عُمَرِ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وفِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، تَوَجَّهَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ إِلَى العِرَاقِ، لِمُلَاقَاةِ الفُرْسِ، واسْتُشْهِدَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَطَلَبَ خَالِدُ بْنِ الوَلِيدِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ مَدَدًا مِنَ المُجَاهِدِينَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ القَعْقَاعَ بْنَ عَمْرُو.

تَعَجَّبَ مَنْ كَانَ حَوْلَ أَبِي بَكْرٍ، وقَالُوا لَهُ: "أَتُمِدُّ رَجُلًا انْفَضَّ عَنْهُ جُنُودُهُ برَجُلٍ؟" فأجَابَ أبُو بَكْرٍ: "لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ رَجُلٌ مِثْلَ هَذَا"، وصَدَقَ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَقَدْ أَلْهَبَ القَعْقَاعُ حَمَاسَةَ جَيْشِ المُسْلِمِينَ، وأنْشَدَ مِنَ الشِّعْرِ مَا أَشْحَذَ هِمَّتَهُم، فَأَبَلَى الجَيْشُ بَلَاءً حَسَنًا، حَتَّى تَحَقَّقَ النَصْرُ.

عُبُورُ الحِصْنِ

وفِي عَهْدِ أمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرِ بْنِ الخَطَّابِ، تَحَرَّكَ جَيْشُ المُسْلِمِينَ لفَتْحِ دِمَشْقَ، بقِيَادَةِ عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ. وعِنْدَمَا وَصَلُوا إلَيْهَا، وَجَدُوهَا مُحَصَّنَةً مِنْ جَمِيعِ الجَوَانِبِ، ومِنَ الصَّعْبِ الدُّخُولُ إلَيْهَا. لَكِنَّ شَجَاعَةَ القَعْقَاعِ تَغَلَّبَتْ عَلَى هَذْهِ الحُصُونِ، وذَهَبَ مَعَ خَالِدٍ بْنِ الوَلِيدِ عَلَى رَأْسِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الجَيْشِ، وعَبَرُوا خَنْدَقًا بِهِ مَاءٌ كَانَ حَوْلَ المَدِينَةِ، ثُمَّ تَسَلَّقُوا الأسْوَارَ عَلَى سَلَالِمَ مِنَ الحِبَالِ، وفَتَحُوا بَابَ الحِصْنِ، ثُمَّ كَبَرُوا جَمِيعًا بصَوْتٍ واحِدٍ، فجَاءَ بَاقِي الجَيْشِ، ودَارَتْ مَعْرَكَةٌ حَامِيَةٌ، ثُمَّ وَجَدَ أهْلُ دِمَشْقٍ أنَّ الاسْتِسْلَامَ أفَضَلُ لَهُم، فطَلَبُوا الصُّلْحَ.

مَعْرَكَةُ القَادِسِيَّةِ:

بَعْدَ أنِ اطْمَأنَّ عُمَرُ بْنُ الخّطَّابِ بفَتْحِ دِمَشْقٍ، كَتَبَ إلَى أبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ أنْ يُرْسِلَ عَدَدًا مِنَ الجُنُودِ إلَى العِرَاقِ، حَيْثُ جَيْشٍ آخَرَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ سَعْدٍ بْنِ أبِي وَقَّاصِ يُواجِهُ صُعُوبَاتٍ كَثِيرَةً فِي مُوَاجَهَةِ الفُرْسِ؛ فأرْسَلَ أبُو عُبَيْدَة

عَدَدًا مِنَ الجَيْشِ إِلَى العِرَاقِ، عَلَى رَأسِهِ هَاشِمٌ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وعَلَى المُقَدِّمَةِ القَعْقَاعُ بْنُ عَمْرو التَّمِيمِيّ.

كَانَ القَعْقَاعُ ذَكِيًّا، لَجَأَ إِلَى حِيلَةٍ تُوْحِي إِلَى الأَعْدَاءِ بقُدُومِ مَدَدٍ كَبِيرٍ للمُسْلِمِينَ، وليَرْفَع أيْضًا مِنْ مَعْنَوِيَّاتِ الجَيْشِ. وقَبْلَ أنْ يَصِلَ القَادِسِيَّةِ، قَسَّمَ رِجَالَهُ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ، كُلُّ مَجْمُوعَةٍ عَشْرَةُ مُقَاتِلِينَ، تَسِيرُ الوَاحِدَةُ بَعْدَ الأُخْرَى، ليَصِلُوا تِبَاعًا.

وكَانَ القَعْقَاعُ فِي أَوَّلِ عَشْرَةٍ وَصَلَتْ إِلَى الجَيْشِ، سَلَّمْ عَلَيْهِم، وخَطَبَ فِيهِم خُطْبَةً حَمَاسِيَّةً، وأخْبَرَهُم أنَّ المَدَدَ يَأتِي تِبَاعًا، ثُمَّ شَقَّ الصُّفُوفَ حَتَّى أصْبَحَ فِي مُقَدِّمَةِ الجَيْشِ، فِي مُوَاجَهَةِ الفُرْسِ، ونَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: "هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟" فَخَرَجَ لَهُ قَائِدُ قَلْبِ جَيْشِ الفُرْسِ "بَهْمِن جَاوْذِيه" الَّذِي قَتَلَ المُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ الجِسْرِ، مِمَّا أثَارَ غَضَبَ القَعْقَاعِ، وأصَرَّ عَلَى قَتْلِهِ أمَامَ الجَمِيعِ، ولَمْ تَكُنْ إِلَّا لَحَظَاتٌ، الْتَقَتْ فِيهَا السُّيُوفُ، ثُمَّ وَقَعَ "بَهْمِن جَاوْذِيه" قَتِيلًا، مِمَّا أثَارَ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الفُرْسِ، والطُّمَأنِينَةَ عِنْدَ المُسْلِمِينَ.

وبَيْنَ اللَّحظَةِ والأُخْرَى، يَنْظُرُ القَعْقَاعُ إلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يأتِي مِنْهُ المُجَاهِدُونَ، فعِنْدَمَا يرَى مجْمُوعَةً، يَعْلُو بصَوْتِهِ مُكبِّرًا، فيَتْبَعُهُ المُسْلِمُونَ بالتَّكْبِيرِ. ثُمَّ أرَادَ القَعْقَاعُ أنْ يَزِيدَ مِنْ حَمَاسِ المُسْلِمِينَ، فطَلَبَ مُبَارزَةِ الأعْدَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، فخَرَجَ لَهُ اثْنَانُ، فانْضَمَّ إلَيْهِ الحَارِثُ بْنِ ظِبْيَانَ، وانْتَظَرَ القَعقَاعُ وصَاحِبُه، ثُمَّ بَدَأتْ المَعْرَكَةِ.

ذَكَاءُ القَعْقَاع

كَانَ للفِيَلَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الفُرْسُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي الحَرْبِ، كَادَتْ أنْ تَعُودَ عَلَى المُسْلِمِينَ بالهَزِيمَةِ، لأنَّ الخَيْلَ تَفِرُّ هَارِبَةً خَوْفًا مِنْ أمَامِ الفِيَلَةِ.

فَكَّرَ القَعْقَاعُ فِي وَسِيلَةٍ تَجْعَلُ خَيْلَ الأعْدَاءِ تَفِرُّ هَارِبَةً هِيَ الأُخْرَى مِنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ، حَتَّى وَجَدَ أنْ يُلْبِسَ إبَلَ المُسْلِمِينَ جُلُودًا وبَرَاقِعَ، حَتَّى يَتَغَيَّرَ شَكْلُهَا وتُصْبِحَ مُفْزِعَةً. وعِنْدَمَا نَزَلَتْ إبْلُ المُسْلِمِينَ للمَيْدَانِ، نَفَرَتْ خَيْلُ الفُرْسِ، وهَرَبَتْ مِنَ المَيْدَانِ بِمَنْ عَلَيْهَا مِنْ الفِرْسَانِ، تَارِكِينَ المُشَاةَ وَحْدَهُم، مِمَّا سَهَّلَ عَلَى المُسْلِمِينَ قَتْلَهُم.

حِيلَةٌ ذَكِيَّةٌ أُخْرَى:

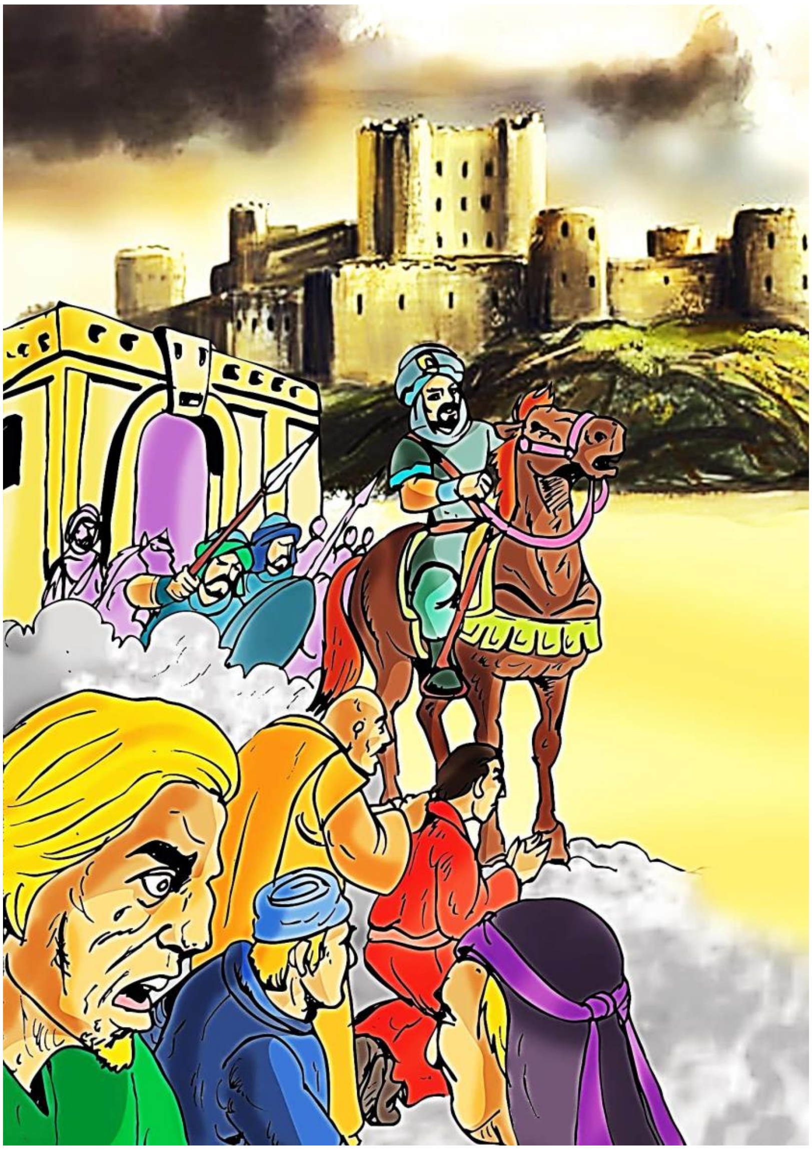
اسْتَمَرَّتْ مَعْرَكَةُ القَادِسِيَّةُ أيَّامًا ولَيالِيَ، وظَهَرَ التَّعَبُ والإِرْهَاقُ عَلَى المُسْلِمِينَ، وشَعَرَ القَعْقَاعُ بِتَسَرُّبِ اليَأْسِ فِي نُفُوسِهِم، وذَلِكَ عِنْدَمَا تَأَخَّرَ وُصُولُ جَيْشِ هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ. وأَرَادَ القَعْقَاعُ أنْ يَشْحَذَ هِمَّتَهُم مِنْ جَدِيدٍ، فَانْتَظَر حَتَّىَ جَاءَ اللَّيلُ، وهَمَسَ إِلَىَ جَيْشِهِ المُكَوَّنِ مِنْ مَائَةِ فَارِسٍ، أنْ يَتَسَلَّلُوا سِرًّا خَارِجَ المُعَسْكَرِ، ويَذْهَبُوا بَعِيدًا حَتَّىَ لا يَرَاهُم أحَدٌ، وينْتَظِرُوا حَتَّىَ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَعُودُوا مَائَةً بَعْدَ مَائَةٍ، حَتَّىَ تَعُودَ الهِمَّةُ.

وفِي الصَّبَاحِ، وَقَفَ القَعْقَاعُ يَنْظُرُ إِلَىَ الجِهَةِ الَّتِي سَوْفَ يَأْتِيَ مِنْهَا جُنُودُهُ، وكُلَّمَا جَاءَتْ مَجْمُوعَةٌ، عَلَا بالتَّكْبِيرِ، فيُرَدِّدُ خَلْفَهُ الجَيْشُ، ظَنًّا مِنْهُم أنَّ الإِمْدَادَاتَ تَتَوَاصَلُ، ثُمَّ جَاءَ جَيْشُ هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وعَادَتِ الهِمَّةُ والعَزِيمَةُ للمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى، ووَاصَلُوا قِتالَهُم مَعَ الفُرْسِ.

اليَوْمُ الأخِيرُ:

فِي آخِرِ يَوْمٍ فِي القَادِسِيَّةِ، سَارَ القَعْقَاعُ بَيْنَ الجُنُودِ، وخَطَبَ فِيهِم خُطْبَةً حَمَاسِيَّةً أَلْهَبَتْ عَزِيمَتَهُم، وأَوْصَاهُم بالصَّبْرِ سَاعَةً، وبَعْدَهَا سَوْفَ يتَحَقَّقُ النَّصْرُ. وانْطَلَقَ الجَيْشُ ليُوَاجِهَ الفُرْسَ، وَحَمِيَ الوَطِيسُ، وتَسَاقَطَ الفُرْسُ صَرْعَى بسُيُوفِ المُجَاهِدِينَ، وتَقَهْقَرَ الكَثِيرُ مِنَ الأَعْدَاءِ، وعَلَى رَأْسِهِم "رُسْتُم" قَائِدُ الفُرْسِ، تَارِكًا مَكَانَ القِيَادَةِ، فطَارَدَهُم القَعْقَاعُ وجُنُودُهُ، حَتَّى أَدْرَكَهُ أحَدُ الأَبْطَالِ فقَتَلَهُ، ثُمَّ انْتَهَتْ هَذِهِ المَلْحَمَةُ الحَرْبِيَةُ بانْتِصَارِ المُسْلِمِينَ.

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ



وُلِدَ سَعْدُ بْنُ مالِكٍ بْنُ أهْيَبَ الزُّهَرِيّ (سَعْدُ بْنُ أبِي وَقَّاصٍ) فِي قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ، سَنَةَ ٢٣ قَبْلَ الهِجْرَةِ، أُمُّهُ "حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ"، وَجَدُّهُ عَمُّ السَّيِّدَةِ "آمِنَةَ أُمّ رَسُولِ اللهِ ﷺ". اشْتَغَلَ بصِنَاعَةِ السِّهَامِ، فأتَاحَتْ لَهُ مِهْنَتُهُ الاخْتِلَاطَ بالكَثِيرِ مِنَ البَشَرِ، بمُخْتَلَفِ طَبَقَاتِهِم وأعْمَارِهِم، كَمَا أتَاحَتْ لَهُ أيْضًا مَعْرِفَةَ أخْبَارِ البِلَادِ الَّتِي حَوْلَهُ، مِنَ الحَجِيجِ الَّذِينَ يَأْتُونَ لقَضَاءِ مَنَاسِكِ الحَجّ والعُمْرَةِ كُلَّ عَامٍ.

حِينَمَا دَعَاهُ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ للإسْلَامِ، كَانَ عُمُرُهُ سَبْعَةَ عَشْرَةَ سَنَةً، اسْتَجَابَ مُسْرِعًا للدَّعْوَةِ، مِمَّا أغْضَبَ أُمَّهُ "حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيانَ"، لأنَّهَا مَازَالَتْ عَلَى دِينِ آبَائِهَا. حَاوَلَتْ أنْ تُعِيدَهُ عَنْ دِينِ الإسْلَامِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ، فامْتَنَعَتْ عَنِ الطَّعَامِ، عَسَى أنْ يَرِقَّ قَلْبُهُ لحَالِهَا، لَكِنَّ سَعْدَ قَالَ لَهَا:

"تَعْلَمِينَ واللهِ يَا أُمَّاهُ، لَوْ كَانَتْ لَكِ مَائَةُ نَفَسٍ فَخَرَجَتْ نَفَسًا نَفَسًا، مَا تَرَكْتُ دَينِي هَذَا لِشَيْءٍ؛ فَإنِ شِئْتِ فَكُلِي، وإنْ شِئْتِ لَا تَأْكُلِي". أقْسَمَتْ أُمُّهُ ألَّا تَأْكُلَ أوْ تَشْرَبَ، وألَّا تُكَلِّمَهُ أبَدًا حَتَّىَ يَعُودَ إلَىَ دِينِ آبَائِهَا.

وهُنَا أنْزَلَ اللهُ سَبْحَانَهُ وتَعَالَىَ: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا، وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ".

ومُنْذُ أنْ دَخَلَ الإسْلَامُ قَلْبَ سَعْدٍ، أصْبَحَ شُغْلَهُ الشَّاغِلُ إعْلَاءَ كَلِمَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي الأرْضِ، فوَهَبَ نَفْسَهُ وكُلَّ مَا يَرْبَحُ لنُصْرَةِ دِينِ اللهِ.

حُبُّهُ للجِهَادِ

غَزْوَةِ بُواطٍ، وغَزْوَةِ أُحُدٍ، وأَسْنَدَ إلَيْهِ أعَمَالًا أُخْرَى، مِنْهَا مُهِمَّةَ الاسْتِطْلَاعِ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أبِي طَالِبٍ، والزُّبيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكَانَ مِنْ شُهُودِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ وأَحَدَ السِّتَّةِ الَّذِينَ اخْتَصَّهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ بالمَشُورَةِ. حَتَّىَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتبَاهَى بِهِ ويقُولُ: "هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي كُلُّ امْرِئٍ خَالَهُ".

وكَانَ لسَعْدٍ شَرَفٌ كَبِيرٌ يَتَبَاهَى بِهِ هُوَ الأخَرُ، فَهُوَ

الوَحِيدُ الَّذِي جَمَعَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، وقَالَ لَهُ "ارْمِ سَعْدُ، فَدَاكَ أبِي وأُمِّي". ودَعَا لَهُ، وقَالَ "اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ، واجْعَلْهُ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ"، فَكَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وأَوَّلَ مَنْ رَمَى سَهَمًا فِي سَبِيلِ اللهِ.

سَعْدٌ مِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ

ذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا بَيْنَ أصْحَابِهِ، فنَظَرَ إِلَى الأُفُقِ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ". فأخَذَ الصَّحَابَةُ يَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُم فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، يتطَلَّعُونَ هَذَا السَّعِيدَ الَّذِي بُشِّرَ بالجَنَّةِ، فإِذَا بِهِ سَعْدُ.

اقْتَرَبَ أحَدُ الصَّحَابَةِ مِنْ سَعْدٍ وسَأَلَهُ: "قُلْ لِي مَاذَا تفْعَلُ لِكَيْ تَنَالَ هَذِهِ البِشَارَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟" فقَالَ سَعْدُ: "لَا أعْمَلُ إلَّا مَا تَعْمَلُونَهُ مِنَ العِبادَاتِ، فَأنَا أصُومُ وأُصَلِّي وأغُضُّ بَصَرِي، غَيْرَ أنِّي لَا أحْمِلُ لأحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ضِغْنًا ولَا حِقْدًا ولَا أبْغِي لَهُم سُوءًا".

حُبُّهُ لرَسُولِ اللّهِ ﷺ

برَغْمِ هِجْرَة النَّبِي ﷺ إلَى المَدِينَة، مَازَالَ المُشْرِكُونَ يُطَارِدُونَهُ، وكَذِلِكَ اليَهُودُ، يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، ولِذَلِكَ تَتَنَاوَبُ الصَّحَابَةُ حِرَاسَتَهُ ﷺ. وذَاتَ لَيْلَةٍ، تَأَخَّرَ الحَارِسُ عَنِ المَجِيءِ، فَشَعَرَ النَّبِيُّ ﷺ بقَلَقٍ، فسَمِعَتْهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ وهُوَ يَقُولُ: "لَيْتَ رَجُلًا مِنْ أصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ"، فَإِذَا بِصَوْتِ سِلَاحٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ: "مَنْ بالبَابِ"؟. فَرَدَّ مَنْ بالبَابِ وقَالَ: "أنَا سَعْدٌ، جِئْتُ لأحْرُسَكَ، فنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

قائد فذ

أرَادَ أمِيرُ المُؤْمنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أنْ يَقُودَ الجَيْشَ بنَفْسِهِ، وذَلِكَ حِينَ جَاءَتْهُ الأَخْبَارُ مِنْ أرْضِ القَادِسِيَّةِ بتَفَوُّقِ الفُرْسِ عَلَى المُسْلِمِينَ, ولَكِنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ نَصَحُوا عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أنْ يُسْنِدَ إمَارَةِ الجَيْشِ إلَى سَعْدٍ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، ففَعَلَ عُمَرُ.

وهَكَذَا تَوَلَّى سَعْدٌ قِيادَةَ جَيْشِ المُسْلِمِينَ فِي أصْعَبِ

مَرَاحِلِ مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ، فِي بِلَادِ فَارِسٍ والعِرَاقِ، فأثْبَتَ أنَّهُ قَائِدٌ مُحَنَّكٌ صَائِبٌ فِي قَرَارَاتِهِ، وذُو عَقْلِيَّةٍ حَرْبِيَّةٍ فَذَةٍ، حَيْثُ ظَهَرَتْ عَبْقَرِيَتُهُ فِي اخْتِيَارِهِ مَكَانَ المَعْرَكَةِ، بَيْنَ حَاجِزَيْنِ جُغْرَافِيَيْنِ (الخَنْدَقُ والعَتِيقُ) لحِمَايَةِ قُوَّاتِهِ، مُحَاصِرًا الفُرْسِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ونَهْرِ الفُرَاتِ، وَاضِعًا قُوَّاتِهِ بالقُرْبِ مِنْ مَوْرِدٍ مَائِيٍّ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ عَلَيْهَا الكَرُّ والفَرُّ مَتَى شَاءَتْ.

كَمَا كَانَ تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أيْضًا، حِينَ اخْتَارَ سَعْدُ مِيقَاتَ بِدْءِ المَعْرَكَةِ فِي النَّهَارِ، بَعْدَ الظُّهْرِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي ارْتَفَعَتْ فِيهِ أشِعَّةُ الشَّمْسِ عَنْ عُيُونِ المُجَاهِدِين.

والْتَقَى الجَيْشَانِ، وأَبْلَى المُسْلِمُونَ بَلَاءً حَسَنًا، ثُمَّ حُسِمَتِ المَعْرَكَةُ لصَالِحِ المُسْلِمِينَ، وقَتَلَ "رُسْتُمَ" زَعِيمَ الفُرْسِ، بفَضلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وتَوْفِيقِهِ لسَعْد فِي قِيادَةِ الجَيْشِ. ولَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، لَقَدْ قَامَ سَعْدُ بعَمَلٍ خُرَافِيٍّ آخَرَ، فمَهَّدَ الطَّرِيقَ أمَامَ الجَيْشِ لعُبُورِ نَهْرِ دِجْلَةَ، حَتَّىَ وَصَلَ بِهِمْ إلَىَ المَدَائِنِ، واقْتَحَمُوهَا، ودَخَلَ سَعْدٌ إِيْوَانُ كِسْرَىَ، وَصَلَّىَ هُنَاكَ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ شُكْرًا للهِ عَزَّ وجَلَّ.

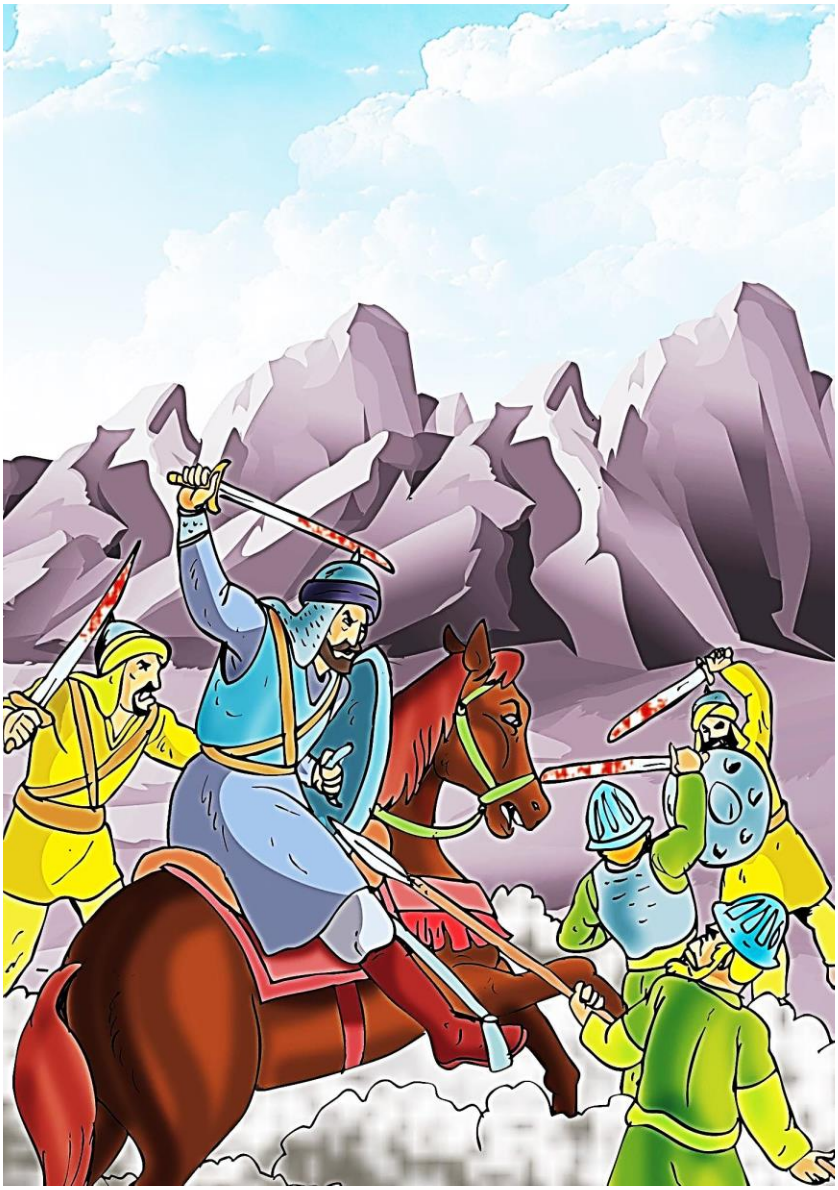
إمَارَةُ العِرَاقِ:

تَوَلَّى سَعْدٌ إمَارَةَ العِرَاقِ، ولَكِنَّ أهْلَ العِرَاقِ وَقْتَهَا كَانُوا أهْلَ قَلَقٍ، بِرَغْمِ أنَّهُ كَانَ يُعَمِّرُ فِي الأرْضِ، اشْتَكُوهُ إلَى أمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَر، وقَالُوا "إنَّ سَعْدًا لَا يُحْسِنُ الصَّلَاةَ"، فابْتَسَمَ سَعْدُ، وقَالَ: (واللهِ إنِّي لأُصَلِّي بِهِمُ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُطِيلُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الأوْلَيَيْنِ وأُقَصِّرُ فَي الأُخْرَيَيْنِ), ورَفَضَ أنْ يَعُودَ إلَى وَلَايَةِ العِرَاقِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَفَاةُ سَعْدٍ بْنِ أبي وَقَّاصٍ:

بَعْدَ حَيَاةٍ حَافِلَةٍ بالانْتِصَارَاتِ، سَكَنَ سَعْدُ فِي قَصْرٍ يَبْعُدُ خَمْسَةَ أمْيَالٍ عَنِ المَدِينَةِ، حَتَّىَ جَاءَتْهُ المَنِيَّةُ عَامَ ٥٥ هِجْرِيَّة، لِيَكُونَ آخِرَ مَنْ مَاتَ مِنَ المُهَاجِرِينَ.

مُحَمَّدُ بْنُ القَاسِمِ الثَّقَفِي



(١)

نَشَأَ مُحَمَّدُ بْنُ القَاسِمِ الثَّقَفِي فِي مَدِينَةِ وَاسِطِ العِرَاقِيَّةِ، ووَالِدُهُ القَاسِمُ الثَّقَفِي كَانَ وَالِيًا عَلَى البَصْرَةِ، تَحْتَ حُكْمِ ابْنِ عَمّهِ (الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفُ الثَّقَفِي) الوَالِيَ عَلَى العِرَاقِ، فِي عَهْدِ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ.

ظَهَرَتْ بَرَاعَةُ مُحَمَّدٍ فِي فُنُونِ القِتَالِ مُنْذُ الصِّغَرِ، لَقْدِ اكْتَسَبَهَا مَنَ البِيئَةِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا، حَيْثُ أنَّ وَاسِطَ مُعَسْكَرٌ للجُنُودِ. وفِي سَنَةِ ٨٨ هِجْرِيَّة، كَانَتْ سَفِينَةٌ قَادِمَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ (يَاقُوتَ) التَّابِعَةِ لبِلَادِ سَيْلَانَ، عَلَيْهَا نِسَاءٌ مُسْلِمَاتٌ، قَرَّرْنَ العَيْشَ فِي العِرَاقِ، بَعْدَ أنْ مَاتَ آبَاؤهِنَّ، ولَمْ يَعُدْ لَهُنَّ رَاعٍ فِي بِلَادِهِم.

وعِنْدَ مُرُورِ السَّفِينَةِ بِمِينَاءِ الدِّيبِلْ ببِلَادِ السِّنْدِ (بَاكِسْتَانْ حَالِيًا)، خَرَجَ عَلَيْهَا قَرَاصِنَةٌ، واسْتَوْلَوْا عَلَى النِّسَاءِ، لَمْ يَرْحَمُوا ضَعْفَهُنَّ وصُرَاخَهُنَّ. وصَلَتْ أخْبَارُ السَّفِينَةِ إلَى الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، فَأرْسَلَ كِتَابًا إلَى مَلِكِ

السِّندِ، يَطْلُبُ فِيهِ الإفْرَاجَ عَنِ النِّسَاءِ، ولَكِنَّ مَلِكَ السِّنْدِ اعْتَذَرَ، مُتَعَلِّلًا بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى اللُّصُوصِ.

لَمْ يَجِدِ الحَجَّاجُ حَلًّا غَيْرَ أَنْ يُرْسِلَ حَمْلَتَيْنِ عَلَى مَدِينَةِ الدِّيبِلِ، الأُوْلَى بِقِيَادَةِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ نَبْهَانَ السَّلْمِي، والثَّانِيَةُ بِقِيَادَةِ بَدِيلِ البَجْلِي، ولَكِنَّ الحَمْلَتَيْنِ فَشَلَتَا، بَلْ قُتِلَ القَائِدَانِ عَلَى يَدِ جُنُودِ السِّنْدِ.

(٢)

كَانَ الحَاجُّ يَرْغَبُ فِي فَتْحِ بِلَادِ السِّنْدِ مِنْ قَبْلُ، لِأَنَّهَا تُشَكِّلُ خطَرًا كَبِيرًا عَلَى القَوافِلِ التِّجَارِيَّةِ، فكَثِيرًا مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى السُّفُنِ المَارَّةِ بَيْنَ المَوَانِيءِ العَرَبِيَّةِ والهِنْدِيَّةِ. والآنَ أصْبَحَ فَتْحُ هَذِهِ البِلَادِ أمْرًا حَتْمِيًّا ولَيْسَ هَدَفًا فَقَطْ، وذَلِكَ عِنْدَمَا عَلِمَ الحَجَّاجُ أنَّ مَلِكَ السِّنْدِ قَتَلَ القَائِدَيْنِ، وسَجَنَ الجُنُودَ والنِّسَاءَ عِنْدَهُ فِي الدِّيبِلِ، فَثَارَ غَضَبُهُ، وجَهَّزَ جَيْشًا كَبِيرًا قُوَامُهُ ١٢ ألْفَ مُقَاتِلٍ، نِصْفُهُ مِنَ الشِّيرَازِ.

وقَرَّرَ الحَجَّاجُ أنْ يَكُونَ "مُحَمَّدُ بْنِ القَاسِمِ الثَّقَفِي" عَلَى

رَأْسِ هَذَا الجَيْشِ الكَبِيرِ، بِرَغْمِ أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ سَبْعَةَ عَشْرَةَ عَامًا، فَأَصْبَحَ أَصْغَرَ قَائِدٍ فِي التَّارِيخِ.. تَقَدَّمَ مُحَمَّدُ بْنِ القَاسِمِ، عَلَى رَأْسِ الجُنُودِ الشُّجْعَانِ، يَدْفَعُهُم الإِيمَانُ لتَنْفِيذِ هَذِهِ المُهِمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، مُهِمَّةُ إِنْقَاذِ مُسْلِمَاتٍ مِنْ أَيْدِي الكُفَّارِ، وتَحْرِيرِ هَذِهِ البِلَادِ مِنَ الجُمُودِ الفِكْرِي، وعِبَادَةِ الإِنْسَانِ، إِلَى عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وبَدَأَ الفُتُوحَاتُ بمَدِينَة "قَنْزبُور" ثُمَّ فَتَحَ مَدِينَةَ "أَرْمَانِيل" فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَدِينَةِ "الدِّيبِل" وكَرِّ اللُّصُوصِ القَرَاصِنَةِ، وهِيَ كَرَاتْشِي اليَوْمَ مِنْ مُدُنِ بَاكِسْتَانَ عَلَى البَحْرِ المُحِيطِ".

لَمْ يَبْخَلِ الحَجَّاج بإِمْدَادِهِ بَيْنَ الحِينِ والآخَرِ، فَقَدْ أَرْسَلَ أُسْطُولًا بَحَرِيًا، كَمَا أَرْسَلَ الخَلِيفَةُ الوَلِيدُ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ مَنْجَنِيقًا حَرْبِيًّا ضَخْمًا، لِيُسَاعِدَهُ فِي تَدْمِيرِ الحُصُونِ، وتَدْمِيرِ الصَّنَمِ الكَبِيرِ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، ويُعَظِّمُونَهُ ويُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ القَرَابِينَ، ويَذْبَحُونَ لَهُ الذَّبَائِحَ..

(٣)

وفِي المَعْرَكَةِ المَصِيرِيَّةِ سَنَةَ ٩٢هـ حَقَّقَ مُحَمَّدٌ الثَّقَفِي النَّصْرَ، وانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ عَلَى المُشْرِكِينَ، وقُتِلَ مَلِكُ السِّنْدِ فِي المَيْدَانِ. واسْتَطَاعَ القَائِدُ فَكَّ أسْرِ المُسْلِمِينَ، وتَخْلِيصِ المُسْلِمَاتِ مِنْ أيَدِي اللُّصُوصِ، وبِنَاءِ مَسْجِدٍ فِي المَدِينَةِ، لتُرْفَعُ فِيهِ التَّكْبِيرَاتُ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي فُتُوحَاتِهِ لبَقِيَةِ أجْزَاءِ بِلَادِ السِّنْدِ حَتَّى انْتَهَى مِنْهَا سَنَةَ ٩٦هـ

لَمْ يَقْصِدُ مُحَمَّدٌ بْنِ القَاسِمِ مَدِينَةً إلَّا وفَتَحَتْ لَهُ قَلْبَهَا وذِرَاعَيْهَا، وقَدَّمَتْ لَهُ المُؤنَ وأعْلَافَ الخُيُولِ، لَمَّا سَمِعُوا عَنْهُ مِنْ كَرَمِ أخْلَاقِهِ وحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، ثُمَّ أحَبَّهُ كُلُّ مَنْ فِي السِّنْدِ، برَغْمِ اخْتِلَافِ دِيَانَاتِهِم، وبِذَلِكَ قَامَتْ أوَّلُ دَوْلَةٍ إسْلَامِيَّةٍ فِي بِلَادِ السِّنْدِ والبَنْجَابِ أيْ بِلَادُ بَاكِسْتَانَ الحَالِيَّةُ.

(٤)

وعَزَمَ القَائِدُ مُحَمَّدٌ بْنُ القَاسِمِ الذَّهَابَ إِلَىَ حُدُودِ الهِنْدِ، لَكِنَّهُ تَسَلَّمَ رِسَالَةً مِنَ الخَلِيفَةِ الجَدَيدِ "سُلَيْمَان بْنِ عَبْدِ المَلِكِ"، يَأْمُرُهُ فِيهَا بِالعَوْدَةِ إِلَىَ العِرَاقِ.

وبرَغْمِ أَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ مَصِيرَهُ سَوْفَ يَكُونُ المَوْتَ أَوْ السِّجْنَ، إِلَّا أَنَّهُ قَامَ بتَنْفِيذِ الأَمْرِ، وخَرَجَ للسَّفَرِ، فخَرَجَتْ جُمُوعٌ حَاشِدَةٌ، تَرْجُوهُ أَنْ يَبْقَىَ مَعَهُم فِي بِلَادِ السِّنْدِ، ووَعَدُوهُ أَنْ يَقُومُوا بحِمَايَتِهِ مِنْ أيِّ خَطَرٍ مَا. لَكِنَّ القَائِدَ يَعْرِفُ أَخْلَاقَ الأَبْطَالِ، فَلَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُخَالِفَ أَمْرَ حَاكِمِ البِلَادِ مَهْمَا كَانَ فِي الأَمْرِ مِنْ صُعُوبَةٍ، وعَادَ إِلَىَ العِرَاقِ مُسْرِعًا

كَانَ الخَلِيفَةُ الجَدِيدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ، عَلَىَ خِلَافٍ كَبِيرٍ مَعَ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي، الَّذِي هُوَ ابْنُ عَمِّ وَالِدِ البَطَلِ مُحَمَّدٍ بْنِ القَاسِمِ، فَأَرَادَ أن يَنْتَقِمَ مِنَ الحَجَّاجِ فِي شَخْصِ مُحَمَّدٍ القَاسِمِ.

وعِنْدَمَا وَصَلَ مُحَمَّدُ بْنُ القَاسِمِ إِلَىَ العِرَاقِ، قَبَضَ عَلَيْهِ الوَالِيَ الجَدِيدُ صَالِحُ بْنُ عَبِدِ الرَّحْمَنِ، كَأَنَّهُ مُجْرِمٌ ولَيْس بَطَلًا خَاضَ مَعَارِكَ ضَارِيَةً فِي السِّنْدِ، لِيَرْفَعَ رَايَةَ الإِسْلَامِ. ثُمَّ أرْسَلَهُ إِلَىَ سِجْنِ مَدِينَةِ وَاسِطِ، وهُنَاكَ لَقِيَ أشَدَّ أنْواعِ التَّعْذِيبِ، حَتَّىَ مَاتَ البَطَلُ سَنةَ ٩٥ هـ

مُحَمَّدُ الفَاتِحُ



بَعْدَ سُقُوطِ الأَنْدَلُسِ، وانْهِيَارِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ، وسُقُوطِ دَوْلَةِ المَمَالِيكِ، شَاءَ اللهُ بِإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، فَكَانَتْ عِزًا للإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، وانْتَشَرَ الإِسْلَامُ فِي الكَثِيرِ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ بَعْدَ أنْ فَتَحُوهَا، وقَضَوْا عَلَى الإِمْبِرَاطُورِيَّاتِ المُسْتَبِّدَةِ، حَتَّىَ جَاءَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ، السُّلْطَانُ السَّابِعُ فِي سِلْسِلَةِ آلِ عُثْمَانَ، أعْظَمُ قَائِدٍ إِسْلَامِيٍّ عُثْمَانِيٍّ فِي القُرُونِ الخَمْسَةِ الأَخِيرَةِ.

نَشْأَتُهُ:

اهْتَمَّ وَالِدُهُ السُّلْطَانُ مُرادُ الثَّانِي حَاكِمَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، بِتَنْشِئَةِ وَلَدِهِ مُحَمَّدٍ نَشْأَةً دِينِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، فَأَحْضَرَ كِبَارَ العُلَمَاءِ، وتَعَهَّدُوا بِوَلَدِهِ مُنْذُ الصِّغَرِ، فحَفِظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وتَعَلَّمَ أُصُولَ الفِقْهِ، وأُصُولَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فأَصْبَحَ شَابًّا مُؤمِنًّا مُلْتَزِمًا بِأَوَامِرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ونَوَاهِيهِ، وشَاعِرًا يُجِيدُ تَنْظِيمَ القَوَافِي، مُولَعًا بِدِرَاسَةِ التَّارِيخِ.

كَانَ الشَّيْخُ "آقْ شَمْسُ الدِّينِ" صَاحَبَ الدَّوْرِ الأَكْبَرِ فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّةِ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ، زَرَعَ فِيهِ عِشْقَ الجِهَادِ،

شَأْنَهُ شَأنَ أبِيهِ وأجْدَادِهِ، وأوَحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ المَقْصُودُ بحَدِيثِ النَّبِيّ ﷺ، الَّذِي قَالَ فِيهِ: "لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ"، فأصْبَحَ فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ حُلْمًا يُرَاوِدُهُ لَيْلَ نَهَار.

تَوَلِّيهِ الحُكْم

وبَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ، تَوَلَّى مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ الحُكْمَ وعُمْرُهُ اثْنَانِ وعِشْرُونَ عَامًا، وبَدَأَ فِي تَرْتِيبِ جَبْهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ أوَّلًا، فَاهْتَمَّ بالعُلَمَاءِ والشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ والقُضَاةِ، وقَرَّبَهُم إِلَيْهِ، ورَفَعَ قَدْرَهُم، وشَجَّعَهُم عَلَى العَمَلِ والإِنْتَاجِ، كَمَا قَامَ ببِنَاءِ المَدَارِسِ والمَعَاهِدِ، إيمَانًا مِنْهُ أنَّ الدَّوْلَةَ الصَّحِيحَةَ لَا تُقَامُ إِلَّا بِالعِلْمِ، وتَوَسَّعَ فِي تَعْمِيرِ الأَرْضِ حَوْلَهَ، فقَامَ ببِنَاءِ المُدُنِ والمَسَاجِدِ والمُسْتَشْفَيَاتِ، كَمَا أعْطَى التِّجَارَةَ والصِّنَاعَةَ الكَثِيرَ مِنْ اهْتِمَامَاتِهِ.

ثُمَّ بَدَأَ الاسْتِعْدَادُ لفَتْحِ مَا تَبَقَّى مِنْ آسْيَا والقُسْطَنْطِينِيَّةِ، حَتَّى تَكُونَ أمْلَاكِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ مُتَصِّلَةً ببَعْضِهَا، لَا تتخَلَّلُهَا مُدُنٌ تَمُوجُ بالثُّورَاتِ والتَّمَرُّدِ عَلَيْهِ.

فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ:

اعْتَنَى مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بالجَيْشِ جَيِّدًا، فدَفَعَ بَيْنَهُم عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ العُلَمَاءِ لتَقْوِيَّةِ العَزِيمَةِ، وقَامَ بتَدْرِيبِ الأفْرَادِ عَلَى فُنُونِ القِتَالِ تَدرِيبًا جَيِّدًا، بَعْدَ أنْ أعَدَّهُم مَعْنَوِيًّا، وغَرَسَ فِيهِم رُوحَ الجِهَادِ، وذَكَّرَهُم بثَنَاءِ النَّبِيِّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الجَيْشِ الَّذِي سَيَفْتَحُ القُسْطَنْطِينِيَّةَ، حَتَّى أصْبَحَ فَتْحُ هَذِهِ المَدِينَةِ حُلْمَ كُلِّ جُنْدِيٍّ عُثْمَانِيٍّ.

كَمَا قَامَ بتَقْوِيَّةِ السُّفُنِ البَحرِيَّةِ، وزِيَادَةِ عَدَدِهَا، وأحْضَرَ مُهَنْدِسًا مَجَرِيًّا يُدْعَى "أورْبَان"، خَبِيرًا فِي صِنَاعَةِ المَدَافِعِ الحَرْبِيَّةِ الضَّخْمَةِ، وصَنَعَ لَهُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ المَدَافِعِ، والَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ وَقْتَهَا مِنَ الأسْلِحَةِ الخَطِيرَةِ فِي الحَرْبِ.

وقَبْلَ أنْ يتَحَرَّكَ بقُوَّاتِهِ، كَانَ عَلَيْهِ أنْ يَضْمَنَ عَدَمَ مَجِيءِ إمْدَادَاتٍ مِنَ البَحْرِ للقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فأقَامَ قَلْعَةً عِنْدَ أضْيَقِ مَكَانٍ عَلَى مَضِيقِ البُوسْفُورِ، مُقَابِلَ قَلْعَةٍ للدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وبِهَذَا أصْبَحَ هُوَ المُتَحَكِّمَ فِي مُرُورِ السُّفُنِ فِي المَضِيقِ، بَلْ فَرَضَ ضَرِيبَةً عَلَى كُلِّ سَفِينَةٍ تَمُرُّ مِنْ بَيْنِ القَلْعَتَيْنِ.

شَعَرَ إمْبرَاطُورُ الدَّوْلَةِ البِيزَنْطِيَّةِ بخُطُورَةِ هَذِهِ القَلْعَةِ، لأهَمِيَّتِهَا العَسْكَرِيَّةِ، فأرْسَلَ إلَى مُحَمَّدِ الفَاتِحِ رَسُولًا للتَّفَاوُضِ، وأبْدَى اسْتِعْدَادَهُ لِأنْ يَدْفَعَ الجِزْيَةَ الَّتِي يُحَدِّدُهَا مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ، مُقَابِلَ أنْ يَعُودَ عَنْ بِنَاءِ القَلْعَةِ. لَكِنَّ مُحَمَّدَ الفَاتِحَ رَفَضَ عَرْضَ الإمْبِرَاطُورِ البِيزَنْطِيِّ، وأصَرَّ عَلَى فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وإخْضَاعِهَا تَحْتَ سَيْطَرَةِ المُسْلِمِينَ. قَامَ بتَجْدِيدِ المُعَاهَدَاتِ مَعَ الدُّوَلِ المُجَاوُرَةِ، حَتَّى تَمَّ عَزْلُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ عَنْ جِيرَانِهَا، إلَّا بَعْضِ الدُّوَلِ القَلِيلَةِ، والَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا شَوْكَةٌ فِي الحَرْبِ، فَقَامَ بفَتْحِهَا سَرِيعًا، ثُمَّ تَفَرَّغَ للقُسْطَنْطِينِيَّةِ. أرَادَ البِيزَنْطِيُّونَ وَقَفَ زَحْفَ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ بجَيْشِهِ، فأقَامُوا سَلَاسِلَ ضَخْمَةً فِي مَدْخَلِ المِينَاءِ، لِيَكُونَ حَائِلًا بَيْنَ سُفُنِ العُثْمَانِيِّينَ والقُسْطَنْطِينِيَّةِ.

عَبْقَرِيَتُهُ العَسْكَرِيَّةُ

لَكِنَّ مُحَمَّدًا الفَاتِحَ كَانَ عَقْلِيَّةً عَسْكَرِيَّةً فَذَّةً، اسْتَطَاعَ أنْ يَتَخطَّى هَذِهِ العَقَبَةَ، فقَامَ بتَمْهِيدِ الأرْضِ، ووَضَعَ عَلَيْهَا ألْوَاحًا خَشَبِيَّةً، بَعْدَ أنْ دَهَنَهَا بالزَّيْتِ والشَّحْمِ، ثُمَّ جَرَّ السُّفُنِ عَلَيْهَا بسُهُولَةٍ، حَتَّى تَخَطَّى هَذِهِ السَلَاسِلِ، ثُمَّ أعَادَ

السُّفُنَ إلَى المِيَاهِ مَرَّةً أُخْرَى، فسَارَتِ السُّفُنُ، لتَسْتَكْمِلَ حِصَارَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ.

اسْتَيْقَظَ أهَالِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ عَلَى حِصَارِ مَدِينَتِهِم، فتَعَجَّبُوا لجَيْشِ المُسْلِمِينَ الَّذِي تَخَطَّى هَذِهِ السَلَاسِلَ العِمْلَاقَةَ، ثُمَّ بَدَأُوا الدِّفَاعَ المُسْتَمِيتَ، فكَانَتْ مَعْرَكَةً حَامِيَةً. وبَعْدَ حِصَارٍ دَامَ ٥٣ يَوْمًا، وبَعْدَ خَوْضِ مَعْرَكَةً دَامِيَةً، أُسْتُشْهِدَ فِيهَا الكَثِيرُ مِنَ الجَيْشِ العُثْمَانِيّ، اْسْتَطَاعَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ وجُنُودُهُ تَسَلَّقَ أسْوَارَ المَدِينَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ودَخَلَهَا وَسْطَ جُنْدِهِ وقُوَّادِهِ ، يُرَدِّدُونَ: مَا شَاءَ اللهُ! فالْتَفَتَ إلَيْهِم وقَالَ: لَقَدْ أصْبَحْتُمْ فَاتِحِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ، الَّذِينَ أخْبَرَ عَنْهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وهَنَّأَهُم بالنَّصْرِ، ونَهَاهُمْ عَنِ القَتِلِ، وأمَرَهُم بالرِّفْقِ بالنَّاسِ، والإحْسَانِ إلَيْهِم. ثُمَّ تَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ، وسَجَدَ للهِ عَلَى الأرْضِ شُكْرًا وحَمْدًا وتَوَاضُعًا.

ثُمَّ قَامَ وتَوَجَّهَ إلَى كَنِيسَةِ آيَا صُوفْيا، الَّتِي اجْتَمَعَ بِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ ومَعَهُمُ القَسَاوِسَةُ والرُّهْبَانُ، يَتْلُونَ صَلَوَاتَهُم وأدْعِيَتَهُم. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أبْوابِهَا خَافَ

النَّصَارَى واخْتَبَئُوا دَاخِلَ الكَنِيسَةِ، فقَامَ أحَدُ الرُّهْبَانِ بفَتْحِ الأبْوابِ لَهُ، فطَلَبَ مِنَ الرَّاهِبِ تَهْدِئَةَ النَّاسِ وطَمْأنَتَهُم والعَوْدَةَ إلَى بُيُوتِهِم بأمَانٍ، فاطْمَأنَ النَّاسُ، وخَرَجُوا مُعْلِنِينَ إسْلَامَهُم، لَمَّا رَأَوْا تَسَامُحَ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ وعَفْوِهِ.

اجْتَمَعَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بالقَساوِسَةِ، وأبْلَغَهُم بحُرِيَّةٍ إقَامَةِ الشَّعَائِرِ الخَاصَّةِ بِهِم، وفَرَضَ عَلَيْهِمُ الجِزْيَةَ، واتَّخَذَ نِصْفَ كَنائِسِ المَدِينَةِ مَسَاجِدَ للمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أعْلَنَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ عَاصِمَةً للدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وأطْلَقَ عَلَيْهَا إسْلَامْ بُولْ وهَكَذَا نَجَحَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بِعَمَلٍ أُسْطَورِيّ، وباعْتِمَادٍ كَامِلٍ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وبعَزِيمَةٍ لا تَعْرِفُ اليَأسَ، وبإصْرَارٍ عَجِيبٍ عَلَى أنْ يَكُونَ هُوَ المَقْصُودَ بحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الَّذِي يُخْبِرُ فِيهِ عَنْ فَاتِحِ القُسْطَنْطِينِيَّة بِأنَّهُ "نِعْمَ الأمِيرُ"، وبأنَّ الجَيْشَ الَّذِي يَفْتَحُها "نِعْم الجَيْشُ"

فُتُوحَاتٌ أُخْرَى

لَمْ يَكْتَفِ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بِهَذَا النَّصْرِ العَظِيمِ، بَلْ تَوَغَّلَ فِي الفُتُوحَاتِ، ففَتَحَ المَجَرَ والصِّربَ والبُوسْنَة وجُزُرَ اليُونَانِ وبِلَادًا أُخْرَى كَثِيرَةً. ثُمَّ تُوُفِّيَ عَنْ ثَلاثٍ وخَمْسِينَ سَنَةً، بَعْدَ ٣١ عَامًا هِيَ مُدَّةُ حُكْمِهِ، قَضَاهَا فِي حُرُوبٍ مُتَوَاصِلَّةٍ للفَتْحِ وتَقْوِيَّةِ الدَّوْلَةِ وتَعْمِيرِهَا، وأَتَمَّ فِي خِلَالِهَا مَقَاصِدَ أجْدَادِهِ، ففَتَحَ القُسْطَنْطِينِيَّة وجَمِيعَ مَمَالِكِ وأقَالِيمِ آسْيَا الصُّغْرَى والصِّرَب والبُشْنَاق وألْبَانْيَا، وحَقَّقَ كَثِيرًا مِنَ الإنْجَازَاتِ الإدَارِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي سَارَتْ بالدَّوْلَةِ الإسْلَامِيَّةِ عَلَى دَرْبِ الازْدِهَارِ.

الفهرس